الجواهري وإنقلاب بكر صدقي
قضية وطن وهوية فن

الأستاذ المساعد الدكتور
سحاب محمد الاسدي
جامعة بغداد - كلية الآداب

الجواهري وانقلاب بكر صدقي قضية وطن وهوية فن

الأستاذ المساعد الدكتور
سحاب محمد الاسدي
جامعة بغداد - كلية الآداب

المقدمة

إنّ المتتبع لسيرة الشاعر المبدع محمد مهدي الجواهري والدارس لشعره ، يجده شاعراً أعلن ارتباطه بقضايا وطنه وهموم شعبه ، وانحيازه التام لهما منذ البدايات الاولى لتجاربه الشعرية ولمواقفه التي جسد بها حقيقة انتمائه للوطن ودفاعه عن قضايا الجماهير وتعبيره الصادق عن آمالها وتطلعاتها وكان الشاعر فخوراً ، متباهيا بطبيعة تلك العلاقة الحميمة التي تربطه بالشعب ، لأنه كان على الدوام لسان صدق ينطق بما يختلج في قلوب الناس الذين وجدوا في شعره تعبيراً صادقا عن إحساساتهم وخلجات أنفسهم وعواطفهم ، فكانوا يحتفظون له بود صادق ، ويبادلونه مشاعر فياضة بالحب والاعجاب والتقدير، وفي ذلك يقول الجواهري

وأنـا لسـانُ الشـعبِ كـلُ بليـــــةٍ تأتيـهِ أحمـلُ ثقلـها وأصـــورُ
وإذا تفطَّـر مـن فـؤادي جانـــبٌ حـدبتْ علـيَّ قلوبـه تتفطـــرُ
إنـي لأحسـبُ حـين أخـبر ذمـــتي أنَّ الـبلاد الى ضـميري تنظـرُ [1]

ولا يخفى أنَّ الجواهري عاصر كثيراً من الأحداث التي مر بها العراق ، ابتداءا من مرحلة الاحتلال البريطاني ، التي كان للجواهري فيها صوت هادر ، للتنديد بالمستعمر والدعوة الصريحة الى الكفاح ضده ومقاومته ، عبر استنهاض همم الجماهير ، وإذكاء روح الثورة لديها ، كي ينعم الوطن باستقلاله ، وينال الشعب حريته ، ليعيش سيداً كريماً في أرضه ووطنه ، وقد

جسد الجواهري واجبه الوطني ، وعبَّر عنه ، حين تقدم صفوف المقاومة الشعبية ، محرضاً الجماهير على اقتحام ميدان المنازلة ، دفاعاً عن حرية العراق، وصوناً لسيادته وكرامته ، فأفصح عن موقفه المناهض للاستعمار البريطاني ، بقصائد ألهبت حماس المواطنين ، وحفَّزتْ الجميع على المشاركة في مقاومة المحتل ، والخلاص من قيده المكبل لحرية الوطن والمواطن فالتقى غضب الناس على مختلف اتجاهاتهم وتوجهاتهم وثقافاتهم ومستوياتهم مع غضبة الجواهري ، عبر صوته المدوي في حشودهم ، المجسد بقصائد كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر: العزم وأبناؤه [٢]، وثورة العراق [٣] ، والثورة العراقية [٤] ، تحية العيد [٥] ، العلم والوطنية [٦] ، في ذكرى الخالصي [٧]، الوطن والشباب [٨] ، شهيد العرب [٩] ، سبيل الجماهير [١٠] ، ثورة النفس [١١] وهي قصائد عبَّر فيها الشاعر عن حقيقة انتمائه لوطنه وإخلاصه لقضايا شعبه، وإدراكه لعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه ، بأن يكون أميناً على أداء رسالته ، جاعلا من شعره رافداً يفيض إباءاً وبطولة وحبا وفداءا في وطن ، كان مشغولا به ، متيما بجماله وحبه ، كما يقول :

إنـــي إذا شَـــغَلَ الغـــرامُ متَـــبَّلا فأنـــا الـــذي بـــبلاده مشـــغولُ
وطـــنٌ جميـــلٌ ، وجهُـــهُ بغـــدادُهُ ورُضـــابُه مـــن دجلـــة معســـولُ[١٢]

وتوالتْ الأحداث وتحول العراق من مرحلة الاحتلال الى مرحلة الانتداب، وإعلان الحكم الملكي ، حتى دخوله عصبة الامم المتحدة ونيله قسطا من استقلاله وحريته ففي خضم كل ماجرى ، بقي الجواهري ، ممسكا بمقود موهبته الشعرية ، موجها خطاها ومساراتها ، بما يجعله متواصلا للبقاء وفيا للعهد الذي قطعه على نفسه أمام الجماهير ، بأن يكون امينا على التعبير عن آلامها وآمالها واهدافها وتطلعاتها ، فلم يسمح لمسارات إبداعه الشعري

أن تحيد عن أهدافها وقيمها ومبادئها ، للمضي في أداء رسالة مقدسة نذر حياته من أجلها ، وقد وجد نفسه أهلا لابلاغها والذود عنها ، بما يملكه من مؤهلات تمكنة من اقتحام الصعاب ومواجهة الملمات ، مؤكدا اقتداره على تحمل المسؤولية وجدارته في صون الأمانة التي وكِّلَ بها ، لأنه لسان الشعب والناس يرقبون صوته ويأملون منه ما يستجيب لأمانيهم وتطلعاتهم ويتبنى مطالبهم ويدافع عن قضاياهم :

وهـل أنـا الا شـاعر يرتجونـــه لنصـرة حـقٍ او للطمـةِ معتـدي
فمـا لـي عمـداً اسـتظيمُ مـواهبي وأورد نفســاً حــرَّةً شــر مــوردِ
وعنـدي لسـانٌ لم يخُنِّـي بمحفـلٍ كما سيفُ عمرلم يخُنْه بمشهد (١٣)

إنَّ هذا السفر الخالد لشعر الجواهري ، يفصح بوضوح عن شاعر ارتبط بشعبه ووطنه ، وظل اميناً على الوفاء لهما ، حريصاً على ان يكون شعره دائماً سلاحاً ماضياً في ميادين الذود عن قضاياهما ومصالحهما ، وقد أثبتت الأحداث والوقائع التي مر بها العراق على امتداد سنوات القرن العشرين أنَّ الجواهري ، كان له حضوره الفاعل والمؤثر في ساحة الفعل السياسي العراقي، يشهد له بذلك منجزه الشعري الغزير ، الذي ظل الشاعر يمده بدفق عطاء دائم متجدد ، بقي – مع غزارته وتنوعه – مترعاً بألق الإبداع والجمال والفن، وبقي الشاعر فيه ، مميزا باتقانه واجادته وتمكنه وقدرته البارعة في اعتلاء قمة الهرم الشعري في عصره ، ليكون – بلا منازع – شاعر عصره ، وليكون كذلك شاهدا عليه ، فمن يتصفح تاريخ العراق الحديث ، لا يمكنه ان يقرأه بمعزل عن شعر الجواهري ، فالاحداث الكبرى ، والمنعطفات التاريخية التي حصلت في العراق كان للجواهري صوته المدوي فيها ، مجسدا موقفه منها عبر اراء

جلية سديدة وافكار صائبة واضحة احتوتها قصائده التي ابان فيها الجواهري عن مضمون مساره الشعري ، المرتبط بحركة الجماهير والمتفاعل مع آمالها واهدافها وتطلعاتها ، والمنسجم مع رغبتها وغاياتها في حياة حرة كريمة لائقة بها فوجد الجواهري نفسه في الموقع الذي اراده لها وكان فخورا في ان يراها فيه ، متباهيا بها ، ولهذا خاطبها بقوله :

أقــولُ لنفســي إذا ضمَّهــــا وأترابَهــا محفــلٌ يُزدهــــى
تســامي فانــكِ خــيرُ النفــوس إذا قــيس كــلٌّ علــى مــا إنطــوى
وأحسنُ ما فيكِ أنّ الضميرَ يصـيح مـن القلـب إنّـي هنـــا

.....

تســـامي فـــإن جناحيـــكِ لا يقَـــرَّان الا علـــى مرتقـــى
كـــذلك كـــلُّ ذوات الطمـــا ح والهـــمِ مخلوقـــة لـــلذرى
شـــهدتُ بانـــكِ مـــدخورةٌ لأ بعـدَ مـا في المـدى مـن مـدى
وانـكِ سـوف تـدوي العصـور بمـا تتركـين بهـا مـن صـدى [١٤]

بهذه النفس الابية ، مضى الجواهري ، مقتحما مسالك الصعود بموهبته الشعرية نحو القمة التي لا تتسع الا لمن هو بمثل طرازه وندر ذلك في عصره ، فبقي شاعره الأوحد .وبعد هذا كله بقي ان ندخل في صميم موضوع بحثنا الموسوم بـ (الجواهري وانقلاب بكر صدقي قضية وطن وهوية فن) لنتبين ما يتصل به من حقائق ومواقف ، تضعنا امام شخصية الجواهري ورؤيته لحدث مهم شهده العراق وموقفه منه بما قال فيه من شعر ومقالات خص بها انقلاب بكر صدقي الذي استهدف الاطاحة بحكومة ياسين الهاشمي ، فنجح في مسعاه يوم التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٣٦ م ، ليتولى حكمت سليمان - الذي كان له دور كبير في التنسيق لنجاح الانقلاب - تشكيل

الحكومة الجديدة بتكليف من الملك غازي ، وبكر صدقي الذي نسب الانقلاب اليه ، كان حينذاك قائدا للفرقة الثانية برتبة فريق وهو قائد عسكري ، معروف بين أقرانه من القادة العسكريين بجرأته وحزمه وشجاعته [١٥] ، وربما قاده طموحه الشخصي الى تولي عرش العراق ، من خلال تلك الحكومة التي نصبها الانقلابيون ورفض قائدهم بكر صدقي منصب وزير الدفاع فيها مفضلا أن يكون رئيس أركان الجيش تاركا وزارة الدفاع لزمليه الفريق عبد اللطيف نوري الذي كان قائدا للفرقة الأولى [١٦] ، ولم يكن بمقدور هذا الانقلاب أن يبقى لأكثر من ثمانية اشهر وعشرة أيام ، بعد اغتيال قائده بكر صدقي في الحادي عشر من آب عام ١٩٣٧ م [١٧] .

وبعد هذه اللمحة عن الانقلاب ومصيره نعود لنستجلي طبيعة الموقف الذي وقفه شاعرنا الكبير الجواهري من هذا الانقلاب وليس أمامنا ما يكشف عن ذلك الموقف سوى ما كتبه الشاعر من مقالات نشرها في جريدة كان هو صاحب امتيازها سماها (جريدة الانقلاب) ويشير الجواهري الى ان الدافع الاساسي الي دعاه الى إصدار هذه الجريدة ، هو عمق العلاقة التي تربطه مع الناس ، وليس أي دافع آخر أذ يقول: (واصدرت جريدتي الثانية مستعيرة اسم _ الانقلاب _نفسه ، متطوعا غير ذي انتماء لأحد ، و لا ذي علاقة بأحد الا بخيط متين مما بيني وبين الناس)[١٨] وقد تكون هذه التسمية أول إبلاغ صريح عن موقف التأييد والمساندة الذي وقفه الجواهري من الانقلاب ثم جاء تعزيز هذا الموقف وتأكيده بما عبر عنه من آراء وأقوال خص بها الحركة الانقلابية وقادتها تضمنتها المقالات التي نشرها في جريدته ثم أردف هذا الموقف بتعبير آخر لتأييده حين نظم قصيدة بعد شهر ونصف من الانقلاب

ضمنها موقفا جليا تجسدت من خلاله حماسة منقطعة النظير في مؤازرة الانقلاب والإشادة بقادته [١٩] وقبل أن نقف مع الشاعر لمتابعة ما ورد في القصيدة من دلالات ومعان عبرت عن موقفه نتبين جانبا من هذا الموقف المؤيد تجلى بوضوح بتلك المقالات التي واظب على كتابتها ونشرها في جريدته (الانقلاب) ومنها المقال الذي نشره بعنوان (كوني حازمة يا وزارة الانقلاب) وجاء فيه قوله : (أيدنا الوزارة ، لأننا رأينا المصلحة العامة تقضي بتأييدها ، ولاعتقادنا بحسن مقاصد رجالها ، ولأنها تسلمت مقاليد الحكم بالكيفية التي كنا نصبو اليها ، فقضت على أدوار ضجت منها البلاد كثيرا ، وجزع الشعب من تصرفات المسؤولين ، فلم نر من الصواب أن نجابهها بغير التأييد والصبر لنفسح لها مجال العمل) [٢٠] .

فالجواهري فيما مر من قول يعلل لجملة أسباب دفعته الى موقف التأييد للوزارة الجديدة نوجزها بالآتي :

١- متطلبات المصلحة العامة للشعب والوطن .

٢- الاعتقاد بحسن نيات رجال الوزارة وسلامة مقاصدهم .

٣- إن هذه الوزارة تسلمت مقاليد الأمور بعد مرحلة قهر ومعاناة ألقت بظلالها على حياة الشعب الذي ضاق ذرعا من إساءات ولاة أموره .

٤- إن الحكمة تقضي بان تمد الأيدي وتتعاضد السواعد والعقول لمؤازرة تلك الولادة الجديدة ومنحها الفرصة للإفصاح عما يمكن أن تقدمه للشعب من أعمال وإنجازات يستحقها والتحلي بالصبر لانتظار ما تسفر عنه برامجها وخططها .

ولهذا مضى الجواهري مؤكدا دلالة موقفه الوطني بقوله (إن الإخلاص لهذا الوطن هو الذي يدفعنا الى المطالبة بتنفيذ الخطط بالعزم الصارم والإرادة الحديدية ، وان المصلحة العامة هي التي تحفزنا الى أن نستنجز الرجال القائمين بالحكم مواعيدهم التي قطعوها على أنفسهم وكانوا يعملون لها قبل الحكم وعملوا لها بعده) [٢١] .

فما من شك إن الجواهري في موقفه من تأييد الانقلاب لم يكن – قطعا – ليعبر عن مصلحة شخصية أو رغبة في نيل منصب ما أو مكسب معين ، بل كان همه المجاهرة برأي واضح وموقف جرئ هدفه الأسمى الإسهام الفاعل في بناء وطن قوي كريم ينعم فيه المواطن بحريته وكرامته وحقه في عيش هانئ وحياة سعيدة ، فالجواهري – هنا – يؤكد انحيازه التام الى صف السواد الأعظم من أبناء الشعب ذلك الانحياز الذي بقي الشاعر مخلصا له وفيا في التواصل لتأكيده وتجسيده في كل مناسبة وفي كل موقف ، وشعره حافل بدلالة إخلاصه ووفائه وصدق انتمائه الوطني وعميق ارتباطه بأبناء وطنه وتفاخره بانحيازه لقضاياهم والتعبير عن همومهم والتفاعل مع آمالهم وآلامهم والدفاع عن حقوقهم بحماسة وجرأة وصلابة شهدت له بها تلك الساحات والقاعات والمنتديات التي صدع فيها صوته مدويا لينتصر للحق وأهله من وطنيين اماجد شرفاء ويمحق الباطل وعبيده من أراذل الطغاة والمنافقين ، ومآثر الجواهري كثيرة في هذا المعنى لكننا سنقف معه عند وقفة أبيه شجاعة اطارت صواب الطغاة وأذاقتهم مرارة الذل والهوان حين وقف الجواهري هازئا بهم ، وهو يقول :

أنـا حـتفهم ألج البيـوت عليهـم أغـري الوليـد بشـتمهم والحاجبـا
خسـئوا : فلـم تـزل الرجولـة حـرة تـأبى لهـا غـير الأماثـل خاطبـا
والأمثلـون هـم السـواد فديتهـم بـالارذلين مـن الشـراة مناصبـا
لسـت الـذي يعطـي الزمـان قيـاده ويـروح عـن نهـج تـنهج ناكبـا
آليـت اقـتحم الطغـاة مصرحـا إذ لم أعـود أن أكـون الرائبـا
وغرسـت رجلـي في سـعير عـذابهم وثبت حين أرى الدعي الهاربا[٢٢]

عذرا فان الجواهري في إبداعه وشموخه وعنفوانه وكبريائه يغري بمزيد من بديع قوله وبليغ نظمه ولكن لزاما علي أن أعود الى موضوع بحثي (الجواهري وانقلاب بكر صدقي قضية وطن وحرية فن) لأكمل القول في شقه الثاني أي قصيدة الجواهري التي خص بها قادة الانقلاب مؤكدا موقفه المؤيد لهم ولحركتهم ، ومن اجل الوقوف على أبعاد هذا الموقف الذي جسدته رائية الشاعر سنحاول تتبع الدلالات والمعاني التي اشتملت عليها لإلقاء مزيد من الضوء على موقف الجواهري من انقلاب بكر صدقي .

يستهل الجواهري قصيدته بقوله :

كلـوا الى الغيـب مـا يـاتي بـه القـدر واستقبلوا يومكم بالعزم وابتدروا
وصـدقوا مخـبرا عـن حسـن منقلـب وآزروه عسى أن يصـدق الخـبر
لا تتركـوا اليـأس يلقـى في نفوسـكم له مدبا ولا يأخذكـم الخور
تـذكروا أمـس واسـتوحوا مسـاوئه فقد تكون لكم في طيه عـبر
واجمعـوا أمـركم يـنهض بسـعيكم شعب الى همم الساعين مفتقر[٢٣]

وفي هـذا الاسـتهلال يخاطـب الشـاعر أبنـاء الـوطن نـاقلا اليهم بشـرى الانقـلاب ، داعيـا إيـاهم الى حسـن الظـن بقادتـه وإمهـالهم الوقـت الكـافي ليفصـحوا عـن برامجهم وخططهـم ليتجاوزوا ادران الماضي ويزيحوا مخلفات

السلطة السابقة بالقضاء على مساوئها ومفاسدها [٢٤] ، ثم يتحول الى التعريف بالانقلابيين مشيرا الى طبيعة المهام الجسيمة التي تنتظرهم وقد نذروا أنفسهم وارخصوا دماءهم من اجل تحقيقها للمضي في طريق تحرير العراق وإنقاذه ممن عبثوا بمقدراته واستباحوا خيراته واستعبدوا شعبه وسلبوه حريته وكرامته [٢٥] ، فاقتحم المخلصون من أبنائه ميدان الفعل الجهادي ليتصدوا للفساد والمفسدين بهمة عالية وعزيمة قوية :

أتتكم زمرة تحدو عزائمهـــا ... ما خلفت قبلها من سيء زمر
ألقت على كل شبر من مسالكها ... يلوح مما جنى أسلافها اثر
مهمة عظمت عن أن يقوم بها ... فرد وان يتحدى أمرها نفر
ما ان لكم غيره يوم فلا تهنوا ... وقد أتتكم بما تخشونه نذر
طالت عماية ليل ران كلكله ... على البلاد وان الصبح ينتظر
وإنما الصبح بالأعمال زاهية ... لا الوعد يغري ولا الأقوال تنتشر[٢٦]

ويذكر الشاعر إن هذه الزمرة التي قادت الحركة الانقلابية قد تسلمت الحكم وإمامها ارث ثقيل مما تنوء به البلاد من المساوئ والمفاسد ، كي يضع أولئك القادة أمام حقيقة المهمة الوطنية العظيمة التي ينبغي التصدي للنهوض بها وجعلها وقائع ملموسة تجسدها الأعمال الخالدة وليس الوعود الكاذبة والشعارات البراقة الزائفة .

ويتحول الشاعر بعد ذلك إلى رئيس وزراء الحكومة حكمت سليمان مشيدا بما اقدم عليه من عمل جسور ، تفجر فيه غضبه وغيضه ليقتص من الطغاة ، وينقذ الوطن والمواطن من مغتصبي حقوقه وحرياته فيقول الجواهري:

وانت يا بن سليمان الذي لهجت بما جسرت عليه البدو والحضر
الكابت النفس أزمانا على حنق حتى طغى فرأينا كيف ينفجر
والضارب الضربة العظمى لصدمتها لحم العلوج على الأقدام ينتشر
هل ادخرت لهذا اليوم إهبته أم أنت بالأجل الممتد معتذر
أقدمت إقدام من لا الخوف يمنعه ولاينهنه من تصميمه الخطر
وحسب أمرك توفيقا وتوطئة إن الطغاة على الاعقاب تندحر [٢٧]

ويتواصل الشاعر في ثنائه وإشادته بذلك الفعل الانقلابي ، مؤكدا أن مآثره ستبقى خالدة ، وهو في أثناء ذلك يوجه خطابه إلى حكمت سليمان ، سائلا إياه أن كان يسمح بان تظل نتائج ما اقدم عليه من فعل أسيرة القضاء والقدر وان يسمح للمتقولين أن يقولوا ما يحلو لهم من كلام مشككين في قدرة الانقلاب على إنجاز أي شئ ، لأنه لا يعني اكثر من تبدل أسماء بأسماء أخرى ، حيث يقول :

دبرت اعظم تدبير واحسنه تتلى مآثره عمرا وتذكر
فهل تحاول أن تلقي نتائجه يأتي القضاء بها أو يذهب القدر
وهل يسرك قول المصطلين به والمستغلين ان الأمر مبتسر
وان كل الذي قد كان عندهم على التبدل في الأسماء مقتصر
وهل يسرك أن تخفي الحجول به ما دام قد لاحت الاوضاح والغرر [٢٨]

ومن هنا يظهر الشاعر حرصه على أن تمضي قدما مسيرة ذلك الفعل ، وهي قادرة ، لان خلفها جيشا جبارا يمنحها القوة والاقتدار ، وقائدا يمتلك مقومات الاقدام والبطش ، إذا ما استدعت مصلحة البلاد ذلك البطش ، فراح يقول :

أعيذُ تلك الخطى جبارة صعقت لها الطواغيت وارتجت لها السرر
أن يعتري وقعها من ربكة زلل أو أن يثبط من إقدامها الحذر
ماذا تريد وسيف صارم ذكر يحمي الثغور وأنت الحية الذكر
الجيش خلفك يمضي من عزيمته فرط الحماس ويذكيها فتستعر
أقدم فأنت على الإقدام منطبع وابطش فأنت على التنكيل
مقتدروثق بان البلاد اليوم اجمعها لما ترجيه من مسعاك تنتظر [٢٩]

ويمضي الجواهري يذكر قائد الانقلاب بما يبيته أولئك الحكام الذين أقصاهم الانقلابيون ، وهم يمنون النفس بالجلوس ثانية على كرسي الحكم ، متحينين الفرصة للانقضاض ، مستغلين سياسة التسامح ، ومتسترين بمواقف الصفح والعفو ، داعيا الى حسم الموقف معهم بحزم وقوة ، وعدم التساهل والتماهل ، محذرا من عواقب ما سيترتب على التخلي عن إنزال القصاص العادل بهم ، فيقول موجها كلامه الى قائد الانقلاب :

لا تبق دابر أقوام وترتهم فهم إذا وجدوها فرصة ثأروا
هناك تنتظر الأحرار مجزرة شنعاء سوداء لا تبقي ولا تذر
وثم شرذمة الفت لها حجبا من طول صفح وعفو فهي تستتر [٣٠]

ومثل هذا الموقف كان الجواهري قد تبناه في جريدته (جريدة الانقلاب) من خلال مقال له عرض فيه مجريات الأحداث وطبيعة المواقف ، وما ينبغي عمله لتدارك الأمور وإيقاف تدهور الأوضاع وإصلاح أحوال البلاد ، قبل انزلاقها الى منزلق خطير ، تصعب معه المعالجة ، فقال مخاطبا رجال الحكم محذرا و منبها : (يا رجال الحكم إن سياسة الهدوء واللين سياسة غير ناجحة، وخاصة في مثل هذا الدور ، ولم تكن الأمور خافية عندكم لتقضوا الأوقات في درسها وتمحيصها وتنظروا في إصلاحها ومعالجتها ، ولكنكم شاعرون بها

وعارفوها ، وشعوركم هذا ، ومعرفتكم هذه ، هما اللذان دفعاكم الى أن تنزلوا الوزارة السابقة من كراسيها بتلك الحالة ، فلا عذر لكم إذن في التزام الصمت والهدوء) [٣١] وبدأ الشاعر يرى ما يلوح في الأفق ، حيث أخذت الأوضاع تتكدر ويدور همس بان الوضع سيعود الى سالف عهده ، فلم يكن أمامه إلا مصارحة رئيس الوزراء بخطورة الموقف ، داعيا إياه أن يكون حازما في معالجة الأمور ، ومحاسبة أولئك الذين أجرموا بحق الوطن وأبنائه ، فيخاطبه قائلا :

إني أصارحك التعبير مجترئا ... وما الصريح بذي ذنب فيعتذر
إن السماء التي ابديت رونقها ... يوم الخميس بدا في وجهها كدر
تهامس النفر الباكون عهدهم ... ان سوف يرجع ماضيهم فيزدهر ولم
تجري الأحاديث نكراء كعادتها ... ولم يرع سامر منهم ولا سمر
فحاسب القوم عن كل الذي ... عما أراقوا وما اغتالوا وما اجترحوا[٣٢]

فالشاعر- فيما مر من قول - يعبر عن انزعاجه وعدم رضاه من تقصير القائمين على الحكم ، في كونهم لم يجسدوا محاسبتهم لسابقيهم الى فعل ملموس ، يثبتون من خلاله انحيازهم لجماهير الشعب ، وتفانيهم لخدمتها وضمان حقوقها ، بما يقدمون من مكاسب ومنجزات ، تؤكد صدق النيات وصدق الأقوال والمزاعم ولهذا نجد الشاعر يذكر وينبه ، متابعا مطالبته لرئيس الوزراء بتشديد الخناق على الأعداء وعدم التهاون في محاسبتهم بما يستحقون، مصرحا بقوله:

للآن لم يلغ شبر من مزارعهم ... ولا تزحزح مما شيدوا حجر
ولم يزل لهم في كل زاوية ... منوه بمخازيهم ومفتخر
وتلك للحر مأساة مهيجة ... يدمى ويدمع منها القلب والبصر

فضيق الحبل واشدد من خناقهم فربمـــا كـــان في إرخائـــه ضـــرر
ولا تقـــل تـــرة تبقـــى حزازتهـــا فهم على أي حال كنت قد وتروا[٣٣]

وكان الجواهري قد نبه الى مثل هذا الأمر الخطير مظهرا – فيما عرضه من موقف – استياءه من سياسة التهاون واللين ، كما ورد في جريدة الانقلاب بقوله:(لقد أصيبت البلاد بنكبات عديدة في أدوار حكمها المختلفة ، وان إزالة تلك الويلات وإعادة الأمور الى نصابها ورد الحقوق الى أصحابها ، تتطلب أن تضربوا الضربة القوية الحازمة ، فالحق المغتصب لا يعود الا بالقوة)[٣٤] ويختم الشاعر قصيدته بانطباع، يجسد فيه خلاصة رأيه في الانقلاب، والمصير الذي آل اليه ، بعد أن اخفق الانقلابيون في مسعاهم ، وعجزوا عن الإيفاء بوعودهم فلم يحققوا ما كان مؤملا منهم ، حين تعثرت الخطى فخابت الظنون بهم ، وتبددت آمال علقت عليهم ، وانتعشت آمال المنتظرين إخفاقهم ، ليعودوا الى سالف عهدهم ، ويعاودوا تسلطهم على البلاد وتحكمهم بأهلها بعد طول رقاد ، كما يجسد الجواهري ذلك الموقف بقوله :

أصبحت أحذر قول الناس عن أسف من أن يروا تلكم الآمال تندثر
تحـــرك اللحـــد وانشـــقت مجـــددة أكفان قوم ظننا انهم قبروا [٣٥]

وهكذا بدا لنا موقف الجواهري فيما عرضه من أراء وأفكار ومعان ، تجسدت فيما مر قوله من أبيات قصيدته التي خص بها انقلاب بكر صدقي وعنونها بعبارة (تحرك اللحد) وارى أن الشاعر في اختياره لهذا العنوان ، أنبأ عما آلت اليه الأمور ، وتمخضت عنه الأحداث ، فعبر بوضوح شديد عن صورة الحال ، وتجدر الاشارة الى ان قصيدة (تحرك اللحد) كان الجواهري يعدها قصيدة مدوية ، فهو بدأها بمطلع حسن توقع فيه خيراً من الانقلاب

لكنه، ختمها بتوقعه عن المصير الذي آل اليه والسخرية من رموزه [٣٦] . وهو في موقفه الذي جسدته هذه القصيدة أو فيما كتبه في جريدته (الانقلاب) حرص على أن يضع حكومة الانقلاب أمام مسؤولياتها ، مذكرا إياها بما كانت عليه حال البلاد ، بفعل عجز الحكومة السابقة عن النهوض بمهامها ، مؤملا في أن تكون الحكومة الجديدة عند عهدها ووعدها تفصح عن جوهر توجهاتها بالأعمال الملموسة ، متوخية في ذلك خدمة الوطن والشعب ، واضعة مصلحتها فوق أي اعتبار آخر ، ومن اجل تحقيق ذلك عليها أن تتصدى للقوى المعادية وتنزل بها العقاب الذي تستحقه ، وإذا لم تنهض الحكومة بواجباتها ، ولم تستجب لحاجات الناس ومصالح البلاد ، فلا يرتجى منها خير ولن تكون الا كسابقاتها ، ويصدق عليها أنها مجرد تبدل أسماء بأسماء أخرى.

ولا بد من القول إن حملة المعارضة التي قادها الجواهري ضد وزارة الانقلاب، لم تحصل بعد سقوط تلك الوزارة [٣٧] ، إنما بدأت في أثناء قيامها (لتخليها عن الوعود التي قطعتها على نفسها ، عند أول تأليفها بإنجاز إصلاحات جذرية في جميع نواحي الحياة ، ولشنها حملة إرهابية للقوى الوطنية التي ساندت الانقلاب ، شملت الشاعر نفسه بصدور حكم بسجنه ، متخذة من قضية (الكاشير) ذريعة . وخلاصة قضية (الكاشير) إن مجلس الطائفة اليهودية كان يتقاضى ضريبة عالية على اللحوم تستوفي من المستهلكين ، مما دفعهم الى الاحتجاج ، طالبين رفع هذه الضريبة ، وقد انفردت جريدة (الانقلاب) بتبني مطالبهم) [٣٨] ، وبعد هذا نجد إن الموقف الذي وقفه الجواهري من انقلاب بكر صدقي اصبح من الوضوح ، وتجلت حقيقته

وأبعاده ، فلم يكن تأييد الجواهري لذلك الانقلاب ، ووقوفه الى جانبه منطلقا فيه من مصلحة خاصة ، أو منفعة شخصية ، إنما كان يجسد فيه موقفا وطنيا خالصا ، كما عبر عن ذلك بقول مر ذكره ، ونرى من المفيد إعادة ذكره ، إذ قال الجواهري : (أيدنا الوزارة ، لأننا رأينا المصلحة العامة تقضي بتأييدها ، ولاعتقادنا بحسن مقاصد رجالها ، ولأنها تسلمت مقاليد الحكم بالكيفية التي كنا نصبو اليها ، فقضت على أدوار ضجت منها البلاد كثيرا ، وجزع الشعب من تصرفات المسؤولين ، فلم نر من الصواب أن نجابهها بغير التأييد والصبر لنفسح لها مجال العمل .)[٣٩].

فموقف التأييد هذا ، كان مقرونا بالصبر لمنح الانقلابيين الفرصة التي يمكنهم من خلالها الإفصاح عن حقيقة مقاصدهم وطبيعة أفعالهم ، وفي ضوء هذا الموقف اصدر الشاعر جريدة (الانقلاب) ، (وإذ أحس بانحراف الانقلاب عن أهدافه التي أعلن عنها بدأ يعارض سياسة الحكم فيما ينشر في هذه الجريدة ، فأخذت الحكومة تتحين الفرص للإيقاع به ، وتم لها ذلك ، وحكم عليه بالسجن ثلاثة اشهر وبإيقاف الجريدة عن الصدور شهرا .) [٤٠]

ويؤكد الجواهري استمرار نهج جريدته الانقلاب في مناهضة الانقلابيين وفضح اساليبهم وتنكرهم لوعودهم وتخليهم عن الشعارات التي رفعوها والخطط التي وضعوها فجريدته الانقلاب استمرت بالانقلاب على الفاشية الحاكمة بعد افتضاح امرها وظل هذا موقف جريدة الجواهري مع انه كان سجينا لدى حكومة الانقلاب [٤١] وحينما بانت الحقائق وتجلت الأفعال ،

يقول الجواهري : (خابت الظنون وتبددت الأحلام ، وسرعان ما انكشفت الصدور وانجلت الضمائر ، فإذا بها سوداء ملطخة وإذا بالشهوات والنزعات تعصف بها عصفا شديدا ، وإذا بالحديث يبتدئ همسا ويشتد فيصبح ضجيجا وعجيجا ... والان فلئن مات الانقلاب فليعش الرأي العام) [٤٢] ويبدو إن تلك الخيبة كانت وراء اكتفاء الشاعر بقصيدة واحدة خص بها الانقلاب ورجاله ، لأنه تمنى على الانقلابيين أن يكونوا عند العهود التي قطعوها على أنفسهم بالاستجابة لرغبات الشعب ومصالح البلاد ، لكنهم لم يفوا بالوعد ، ولم يكونوا عند كلمتهم وعهدهم ، وهذا ما صرف الشاعر عن قول مزيد من الشعر في تلك الحركة والتواصل في تأييدها ، وليس (مشاغل الجريدة وأتعابها هي التي صرفته) [٤٣] .

إن هذا الموقف يفسر تغيير موقفه من حركة الانقلاب وتحوله من موقف المؤيد الى المعارض لها ولأفعالها مؤكدا هذا التحول في أقواله التي ظل يتابع نشرها في جريدته الجديدة (الرأي العام) بشجاعة تليق به ، وهو الوطني الحر ، غير آبه ولا مكترث مما ينتظره من حكومة الانقلاب التي لم يكن أمامها من وسيلة لإسكات صوته الا إيداعه السجن وإغلاق جريدته كما أشرنا ، وهذا كله لم يثنِ الجواهري عن مواصلة جهاده الوطني من اجل قضايا وطنه وشعبه ، وأنى لمثله أن يخبو هدير صوته أو يتوقف بمثل تلك العقوبات وهو الذي أحاطوه بالمغريات ، فلم يفلحوا في زحزحته عن مسار كفاحه ، فبقي ممسكا بمقود سفينته ، مبحرا ما بين دجلة والفرات ولسان حاله يقول :

لقـد ابتلـوا بـي صـاعقا متلـهبا ... وقـد ابتليـت بهـم جهامـا كاذبـا
حشـدوا علـيَ المغريـات مسـيلة ... صـغرا لعـاب الارذلـين رغائبـا
ظنـاً بـان يـدي تمـد لتشـتري ... سـقط المتـاع ، وان أبيـع مـواه
وبـان يـروح وراء ظهـري مـوطن ... أسمنـت نحـرا عنـده وترائبـا
حتـى إذا عجمـوا قنـاة مـرة ... شوكاء ، تدمي من أتاها حاطبا
واستيئسـوا منهـا ومـن متخشـب ... عنتـا كصـل الرمـل ينفخ غاضبا
حـر يحاسـب نفسـه أن ترعـوى ... حتـى يـروح لمـن سـواه محاسـبا
حتـى إذا الجنـدي شـد حزامـه ... ورأى الفضـيلة ان يظـل محاربـا
حشـدوا عليـه الجـوع ينشـب نابـه ... في جلـد ارقـط لا يبـالي ناشـبا
مـاذا يضـر الجـوع ؟ مجـد شـامخ ... انـي أظـل مـع الرعيـة سـاغبا
انـي أظـل مـع الرعيـة مرهقـا ... انـي أظـل مـع الرعيـة لاغبـا [٤٤]

فهاهو الجواهري ، يعبر عن انحيازه للجماهير ، ويعطي لشعره حضوره الفاعل في الميدان ، مجسدا حقيقة الدور الذي ينبغي أن ينهض به ، بوصفه قيمة فنية عظيمة الشأن ، حين يرى الشاعر الحق حقا ويعلي من شأنه ، ويرى الباطل باطلا ويحرض على إزهاقه ومحقه ، فوجد الجواهري نفسه بين خيارين لا ثالث لهما ، إما أن يكون جوهرة بلاده حقا فيربح نفسه وتاريخه ، حين يضع الوطن في الاحداق ، أو أن يشتري سقط المتاع ، فيخسر كل شئ ، فاختار اسمه ورسمه وصوته وفنه ، فصرخ بوجه الظلم والظالمين ، غير هياب ولا وجل فاذا بأشعاره تتشظى (صواعق حارقة من اللغة والنغم والصور ، تنزل على حكام العراق الذين يدفعون الشاعر الى الجوع والتشرد) [٤٥] فكان يقتحم عليهم الأبواب والنوافذ ، كاشفا خورهم وهوانهم ، لأنه اعرف بهم وبأفعالهم ، فهم اعجز من أن يطاولوه ، وقد خبروا شاعريته ، حين يضق

ذرعا بما حوله ، فتتفجر همته بركان غضب ، بصوت هادر يقض مضاجع الخائرين ، ويحبس أنفاسهم ، معبرا عن صدق الانفعال وسمو الإبداع ، حين قال :

يتبجحون بان موجا طاغيا ... سدوا عليه منافذا ومساربا
كذبوا فملء فم الزمان قصائدي ... أبدا تجوب مشارقا ومغاربا
تستل من أظفارهم وتحط من ... أقدارهم ، وتثل مجدا كاذبا
أنا حتفهم ألج البيوت عليهم ... اغري الوليد بشتمهم والحاجبا
خسئوا : فلم تزل الرجولة حرة ... تأبى لها غير الأماثل خاطبا
والامثلون هم السواد فديته ... بالارذلين من الشراة مناصبا (٤٦)

إن هذه الأبيات – فضلا عن إحكام سبكها ومتانة نسجها – تكاد مفرداتها وتراكيبها ، تنطق كي تؤازر الشاعر في هديره ، فالموج الطاغي يتعالى دوي صاخب بين طياته ، وفم الزمان يضج بأصوات المنشدين ، وقصائد الشاعر (تستل من أظفارهم وتحط من أقدارهم) فماذا يفعل هذا التقطيع النغمي ، انه يمنح الصورة حركة وحياة ، فتشع المفردات بإيحاءات ودلالات نجد صداها في نفس مبدعها ونفس متلقي إبداعه على السواء (أنا حتفهم) فأي دلالة تجسدها هذه (الأنا) وأي عنفوان تستظل بظله ، فتكون حتفا لمن لا يستحقون الحياة ، ثم بماذا توحي المفردة (خسئوا) إنها محملة بفيض من دلالات ومعان قصد اليها الجواهري ، فمنحها توترا حركيا ، جعل إيقاع رنينها ثقيلا على سمع الأراذل الذين وسمهم – قبل ذلك – بالكذب ، فكان وقع قوله (كذبوا) قويا مؤثرا ، حين اتبعه بقوله (خسئوا) وتلك (الأنا) يتفجر غضبها ويشمخ عنفوانها ، حين تتشفى باحتقار الطغاة بما هو استحقاقهم في الحياة (في مثل هذا العنف والحدة يندفع الجواهري يهاجم

الحكام ويصورهم ، ويذيع هذا الشعر في المحافل العامة بين الناس ، وإذا بصورة المتنبي وتعاليه وكبريائه تعود فتتقمص شخصية الشاعر من جديد ، يعبر عنها هذه المرة تعبيرا ثريا ناضجا) (٤٧)

هوامش البحث ومصادره

١- ديوان الجواهري ، جمع وتحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي وآخرين ، مطبعة الاديب البغدادية ، ١٩٧٤ ، ٣٥/٤

٢- ينظر ديوانه ١/ ٨٧-٨٨ .

٣- ينظر المصدر نفسه ١/ ٩٣-٩٨ .

٤- ينظر المصدر نفسه ١/ ١٠١-١٠٥ .

٥- ينظر المصدر نفسه ١/ ١٤٩-١٥٠ .

٦- ينظر المصدر نفسه ١/ ١٥٣-١٥٤ .

٧- ينظر المصدر نفسه ١/ ٣٣٥-٣٣٧ .

٨- ينظر المصدر نفسه ١/ ٣٩٣-٣٩٤ .

٩- ينظر المصدر نفسه ١/ ٤٠٥-٤٠٧ .

١٠- ينظر المصدر نفسه ٢/ ١٣-١٥ .

١١- ينظر المصدر نفسه ٢/ ٢٣١-٢٣٤ .

١٢- ديوانه ، ١/ ٣٣٦ .

١٣- المصدر نفسه ٢/ ١٥ .

١٤- المصدر نفسه ٣/ ٢٠٦-٢٠٧ .

١٥- ينظر الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث ، الدكتور رؤوف الواعظ ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٧٤م / ٢٥١ .

١٦- ينظر المصدر نفسه / ٢٥٢ .

١٧- ينظر المصدر نفسه / ٢٥٣ .

١٨- ذكرياتي ، محمد مهدي الجواهري ، دار الرافدين ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٨ م ، ١ / ٣٢٣-٣٢٤ .

١٩- ينظر الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث ٢٥٣ .

٢٠ -جريدة الانقلاب ، العدد (١٦) ، ٧ كانون الثاني ، ١٩٣٦ م .

٢١- المصدر نفسه .

٢٢- ديوان الجواهري ٣/ ٤٠١-٤٠٢ .
٢٣- المصدر نفسه ٢/ ٣١٥ .
٢٤- ينظر الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث / ٢٥٦-٢٥٧ .
٢٥ -ينظر المصدر نفسه / ٢٥٧ .
٢٦- ديوان الجواهري ٢/ ٣١٥ .
٢٧- المصدر نفسه ٢/ ٣١٥-٣١٦ .
٢٨- المصدر نفسه ٢/ ٣١٦ .
٢٩- المصدر نفسه ٢/ ٣١٦-٣١٧ .
٣٠ -المصدر نفسه ٢/ ٣١٧ .
٣١- جريدة الانقلاب ، العدد (٢٠) ، ١٦ كانون الثاني ، ١٩٣٦ م .
٣٢- ديوان الجواهري ٢/ ٣١٧ .
٣٣- المصدر نفسه ٢/ ٣١٧ .
٣٤- جريدة الانقلاب ، العدد (٢٠) ، ١٦ كانون الثاني ، ١٩٣٦ م .
٣٥- ديوان الجواهري ٢/ ٣١٨
٣٦- ينظر ذكرياتي ١/ ٣٣٣ .
٣٧- ينظر الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث / ٢٥٨-٢٥٩ .
٣٨- ديوان الجواهري ٢/ ٣٢٥ .
٣٩- جريدة الانقلاب ، العدد (١٦) ، ٧ كانون الثاني ، ١٩٣٦م
٤٠- ديوان الجواهري ١٧/١ .
٤١- ينظر ذكرياتي ، ١-٣٢٧ .
٤٢- جريدة الرأي العام ، العدد (١٦٩) ، ٧ ايلول ، ١٩٣٧ م .
٤٣- لاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث / ٢٥٦ .
٤٤- ديوان الجواهري ٤٠٠/٣ – ٤٠١
٤٥- تطور الشعر العربي الحديث في العراق ، الدكتور علي عباس علوان ، منشورات وزارة الإعلام ، بغداد ، ١٩٧٥م / ٢٩٣ – ٢٩٤
٤٦- ديوان الجواهري ٤٠١/٣
٤٧- تطور الشعر العربي الحديث في العراق / ٢٩٤-٢٩٥